

عصر النهضة أو الانبعاث

لم يكن الانتقال من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة مفاجئاً أو واضحاً أو محدداً بعدد من السنين، وإنما تم بشكل تدريجي. ذلك أن لكل عصر جذور تمتد في أعماق العصر الذي سبقه، ولابد من وجود فترة انتقال طويلة تتصادم وتتفاعل فيها المثل والقيم والمفاهيم القديمة مع الجديدة حتى تستقر في أذهان الناس عملية التغيير ليبدأ بالتدريج عصر يختلف عما سبقه في كل مناحي الحياة. ويعتبر عصر النهضة الذي يطلق عليه أيضاً (البعث الجديد) أو (الانبعاث) أو بالمعنى الحرفي لكلمة (الولادة الجديدة)، مرحلة انتقال بين العصور الوسطى والعصور الحديثة مع أن بعض المؤرخين والباحثين يعطونه طابعاً مميزاً ويصنفونه على أنه حقبة تاريخية على شيء من الاستقلال عما سبقها ولحقها رغم التصاقها إلى حد كبير بالعصور الحديثة. ويستند دعاء هذا الرأي على الخصائص والسمات التي تميز بها عصر النهضة، إلا أن الأدلة العلمية تدفع معظم المؤرخين إلى الاعتقاد بوجود تفاعل وصراع في الانتقال من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة كان أساسه عصر النهضة والانبعاث.

لم يظهر عصر النهضة مرة واحدة في كل أنحاء أوروبا، فقد اختلف من بقعة إلى أخرى زماناً ومكاناً، فإيطاليا سبقت غيرها من دول أوروبا في النهضة التي بدأت فيها قبل منتصف القرن الرابع عشر الميلادي، في حين لم تظهر النهضة في

الحديثة إلى القرن الثامن عشر. علماً أن عصر النهضة في إيطاليا كان قد توقف في تطوره حتى القرن السادس عشر بسبب تعرضها للغزو على يد الملك الفرنسي شارل الثاني في أواخر القرن الخامس عشر (ابتداءً من سنة 1494) مما خلف فيها الكثير من الخراب والدمار. لهذا لم تسبق إيطاليا بقية أوروبا في الخطوات التي تلت عصر النهضة وإنما زامنتها.

ويعود سبب ظهور أولى بوادر الانبعاث الحضاري في إيطاليا قبل غيرها من دول أوروبا إلى أن إيطاليا كانت مركز الإمبراطورية الرومانية ونواتها وعليه فإن سقوط هذه الإمبراطورية لم يؤد إلى تحول إيطاليا نحو الإقطاع بشكل تام كما حدث في فرنسا وألمانيا مثلاً. فقد حافظت مدن إيطالية عديدة على مظاهر الحياة المدنية ونشطت فيها التجارة والطبقة الوسطى في الوقت الذي أطبق نظام الإقطاع بزمامه على غربي أوروبا. فبقيت المؤسسات السياسية والاجتماعية لهذه المدن، والموروثة من أيام إمبراطوريتهم الرومانية، حية فاعلة مثل البندقية وجنوه ونابولي وبيزا وفلورنسا التي شكلت إمارات إيطالية مستقلة. ولا شك أن قرب هذه المدن من الإمبراطورية البيزنطية ووقوعها على خطوط التجارة الدولية أبقى لها بعض صناعاتها ونشاطها التجاري الملحوظ مما زاد في قدرتها على مقاومة التحول نحو الإقطاع خاصة وأن هذا الواقع قد ألغى الحاجة إلى النظام الإقطاعي ومبرراته المتمثلة في انهيار السلطة السياسية

وحاجة الفرد إلى الحماية بالجوء إلى الأقوى. وهكذا كانت المدن الإيطالية هي وحدها القادرة على حمل لواء البعث الجديد في أوروبا بوجه نظام الإقطاع يساعدها في ذلك عوامل رئيسية ثلاث هي:

1 - لم تنطفئ شعلة الحضارة الرومانية تمامًا في شبه الجزيرة الإيطالية أيام العصور الوسطى رغم ما تعرضت له البلاد من انحطاط وتدهور بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية. فقد بقيت معظم آثارها من أبنية شاهقة ومنشآت وجسور وتماثيل ومخطوطات علمية وأدبية مما كان يبعث في نفوس الإيطاليين مشاعر الفخر والاعتزاز بالماضي الحضاري العريق الذي كانت آثاره الشاخصة أمام أعينهم تمنى أنفسهم بالعودة إلى ذلك الماضي ببعثه من جديد.

2 - ان ممارسة حكام وسكان المدن الإيطالية للتجارة وأعمال النقل البحري أيام الحروب الصليبية وبعدها قد ساعدهم على جمع المال والذهب مما جعل هذه المدن قادرة على القيام بحركة النهضة والانبعاث. كما أصبحت هذه المدن مركزا لنقل التراث والثقافة العربية الإسلامية ومدارسها الفلسفية إلى أوروبا إضافة إلى اهتمامها بالثقافة اليونانية التي عرفوا عنها عن طريق العرب.

3 - ان التنافس التجاري والاقتصادي بين أمراء المدن الإيطالية وطبقتها الوسطى قد خلق في أواخر العصور الوسطى نوعا من التعصب المحلي لكل مدينة أو منطقة إيطالية. وقد ظهر ذلك بشكل واضح في مطلع عصر النهضة حين تنافس هؤلاء فيما بينهم في صرف المبالغ الكبيرة لتشجيع الآداب والعلوم والمساهمة في إنشاء المكتبات العامة والخاصة ورعاية فنون النحت والتصوير والعمارة، فاستفاد من ذلك كثير من الفنانين والادباء والفلاسفة والمؤرخين بحصولهم على رعاية الحكام والأثرياء ماديا ومعنويا مما دفعهم إلى ان يقدموا نتاجا أفضل وأوفر وخصوصا في مجال الفن والفكرة.

قامت فلسفة العصور الوسطى على انكار قيمة الانسان كعقل وروح وجسد له حقوقه الانسانية مثلما عليه من واجبات. فلكي يحافظ النظام الاقطاعي على نفسه كان لابد من الغاء حق الانسان في التطلع إلى الافضل فساعدته الكنيسة بتأطير مفهوم انكار النفس والذات باطار لاهوتي يؤكد ان الحياة الآخرة هي الهدف ولا قيمة للحياة الدنيا، وان على الانسان ان لا يعترض على ما كتب له مهما بلغ من سوء، مناقضة بذلك المبادئ الدينية التي تؤكد على الانسان ودوره في الحياة الدنيا والآخرة وهكذا لم يكن هناك مجال للفرد كي يبدع أو يبتكر بل كانت التقاليد والاعراف السائدة تحطم كل رغبة تهدف إلى تحكيم العقل واتباع المناقشة سبيلا

للوصول الى الحقيقة وكرد صريح وواضح جاءت النهضة بفلسفة تناقض تماما فلسفة العصور الوسطى بل تتحداها في التأكيد على الانسان ودوره في الحياة. لذلك عرف بوركهارد عصر النهضة بأنه الحقبة التاريخية التي اكتشف فيها الانسان ذاته وتعرف الى نظرة جديدة للحياة والكون الا أنه لم يصبح عدوا للعقيدة الدينية باكتشافه ميلا انسانيا الى تأمل هذا العالم والاستغراق فيه ومحاولة سبر غوره : فحاول فصل حركته عن الدين أو التوفيق بينهما، وهناك من شذ عن الاثنين برفضه اللاهوت والدين كلية. وعموما فإن عصر النهضة أو الانبعاث قد اتصف بالطابع العلماني البعيد بالقدر الذي سمحت به الظروف عن نفوذ الكنيسة الكاثوليكية وتوجيهاتها وقد ساعد على ذلك انتقال حركة المجتمع في اوروبا من الريف الى المدن حيث المال والتجارة مما اضعف بشكل واضح قدرة الكنيسة في السيطرة على عقول الناس وافكارهم. لكن ذلك لم يمنع الكنيسة من معاقبة العديد من فلاسفة النهضة بالحرق بالنار وما شابه بحجة الكفر والالحاد لانهم قد انتهكوا حرمة اسرار الله وتجاوزوا على الاعراف والتقاليد السائدة انذاك.

ان تأكيد فلسفة عصر النهضة على الانسان كأساس لحركتها وهدف من اهدافها لا يعني ان الافكار الانسانية كانت واحدة في نظرتها ورؤيتها للامور، فقد نشأت مدارس متعددة في هذا المجال، كذلك اختلفت الفلسفة في المانيا في . نهجها عن تلك التي قامت في فرنسا أو انجلترا. فقد اكد الألمان على ما اسماء ارازمس (فلسفة المسيح) فاتخذت النهضة طابعا فكريا عميقا مس قضايا الكنيسة بشكل مباشر مما كان له الأثر في حركة الاصلاح الديني. أما الفرنسيون فقد تمسكوا بدراسة القانون الروماني القديم في حين استندت انجلترا على القضايا الفلسفية والجمالية والادب والمسرح مع وجود نتائج دينية. ومع هذه وتلك كان الانسان هو المحور الذي اهملته العصور الوسطى من قبل.

ا - اثر الحضارة العربية الاسلامية في نهضة اوروبا :

اعترف العديد من المؤرخين والباحثين الأوروبيين بفضل العرب على اوروبا، واكدوا ان الأوروبيين يدينون للعرب بحضارتهم التي بدأت بعصر النهضة. وفي هذا الصدد يقول المؤرخ الانجليزي جوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب انه «إذا كانت هنالك أمة أنقر بأننا مدينون لها بمعرفتنا لعالم الزمن القديم فالعرب هم تلك الأمة لا رهبان القرون الوسطى الذين كانوا يجهلون حتى اسم اليونان» وقال مسيو ليبيري الفرنسي، «لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة اوروبا عدة قرون». أما الباحثة الالمانية زيغريد هونكه فقد كتبت في كتابها الثمين «شمس العرب تسطع على الغرب» تقول.

الاثنين برفضه اللاهوت والدين كلية، وعموماً فإن عصر النهضة أو الانبعاث قد اتصف بالطابع العلماني البعيد بالقدر الذي سمحت به الظروف عن نفوذ الكنيسة الكاثوليكية وتوجيهاتها وقد ساعد على ذلك انتقال حركة المجتمع في أوروبا من الريف إلى المدن حيث المال والتجارة مما أضعف بشكل واضح قدرة الكنيسة في السيطرة على عقول الناس وأفكارهم. لكن ذلك لم يمنع الكنيسة من معاقبة العديد من فلاسفة النهضة بالحرق بالنار وما شابه بحجة الكفر والإلحاد لأنهم قد انتهكوا حرمة أسرار الله وتجاوزوا على الأعراف والتقاليد السائدة آنذاك.

إن تأكيد فلسفة عصر النهضة على الإنسان كأساس لحركتها وهدف من أهدافها لا يعني أن الأفكار الإنسانية كانت واحدة في نظرتها ورؤيتها للأمور، فقد نشأت مدارس متعددة في هذا المجال، كذلك اختلفت الفلسفة في ألمانيا في نهجها عن تلك التي قامت في فرنسا أو إنجلترا. فقد أكد الألمان على ما أسماه أرازمس (فلسفة المسيح) فاتخذت النهضة طابعاً فكرياً عميقاً مس قضايا الكنيسة بشكل مباشر مما كان له الأثر في حركة الإصلاح الديني. أما الفرنسيون فقد تمسكوا بدراسة القانون الروماني القديم في حين استندت إنجلترا على القضايا الفلسفية والجمالية والأدب والمسرح مع وجود نتائج دينية. ومع هذه وتلك كان الإنسان هو المحور الذي أهملته العصور الوسطى من قبل.

أ - أثر الحضارة العربية الإسلامية في نهضة أوروبا:

اعترف العديد من المؤرخين والباحثين الأوروبيين بفضل العرب على أوروبا، وأكدوا أن الأوروبيين يدينون للعرب بحضارتهم التي بدأت بعصر النهضة. وفي هذا الصدد يقول المؤرخ الانجليزي جوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب إنه «إذا كانت هنالك أمة تقرر بأننا مدينون لها بمعرفتنا لعالم الزمن القديم فالعرب هم تلك الأمة لا رهبان القرون الوسطى الذين كانوا يجهلون حتى اسم اليونان» وقال مسيو ليبيري الفرنسي «لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوروبا عدة قرون». أما الباحثة الألمانية زيغريد هونكه فقد كتبت في كتابها الثمين «شمس العرب تسطع على الغرب» تقول..

في مراكز العلم الأوروبية، لم يكن هناك عالم واحد من بين العلماء إلا ومد يده إلى الكنوز العربية هذه يغرف منها ما شاء الله أن يغرف... ولم يكن هناك كتاب واحد من بين الكتب التي صدرت في أوروبا آنذاك إلا وقد ارتوت صفحاته بالري العميم من الينابيع العربية وأخذ عنها إحياءاته وظهر فيه تأثيرها واضحاً كل الوضوح ليس فقط في كلماته العربية المترجمة بل في محتواه وأفكاره.

فالكتب التي درسها الدارسون واستند إليها الباحثون كانت كتب ابن سينا وأبي القاسم الزهراوي والرازي وابن زهرة وحنين بن إسحاق»

استندت هذه الشهادات والاعترافات إلى حقائق تاريخية لا يمكن تغاضيها، ولكي تكون الصورة واضحة لابد من دراسة واقع أوروبا. مقارنة بواقع العرب المسلمين قبل قيام النهضة الأوروبية، ففي القرنين التاسع والعاشر الميلادي كانت الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس في أوج عظمتها بينما نجد أن مراكز الثقافة في الغرب كانت عبارة عن أبراج يسكنها أمراء إقطاعيون متوحشون يفخرون أنهم لا يقرأون. واستمرت همجية أوروبا هذه زمناً طويلاً إلى أن ظهر بعض الميل إلى العلم في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، ولم يكن أمام الأوروبيين غير التوجه إلى العرب أصحاب الحضارة والرسالة الخالدة.

لقد كانت علاقات العرب المسلمين بأوروبا قديمة بدأت بشكل علاقات تجارية كان لها الأثر في احتكاك الأوروبيين المتخلفين بالحضارة العربية. وكانت هناك ثلاثة طرق للاتصال هي: طريق جبال البرانس وطريق البحر المتوسط وطريق الفولغا المؤدي إلى شمال أوروبا باجتياز بلاد روسيا. وكان الطريقان الأولان يسلكهما عرب الأندلس أما الطريق الثالث فكان يسلكه عرب المشرق. وفيما يتعلق بالبحر المتوسط فقد كان بحيرة خاضعة للسيادة العربية يرسل العرب من خلاله إلى جميع الموانئ الأوروبية منتجاتهم الصناعية والزراعية. وتدل النقود المكتشفة في أوروبا على مسالك الطرق التجارية العربية في أوروبا، فقد كانت سواحل بحر قزوين مركزاً لتجمع تجار دمشق وبغداد وسمرقند وتفليس حيث ينطلق التجار إلى أقاصي أوروبا الشمالية، وقد وجدت مئات النقود العربية في فنلندا وعموم جزر بحر البلطيق. وتدل تواريخ النقود التي وجدت في روسيا من مصب نهر الفولغا إلى شواطئ بحر البلطيق أن التجارة قد بدأت في وقت مبكر منذ القرن الثامن الميلادي وآخر تاريخ لتلك النقود هو سنة 1040 ميلادية.

إن هذه المقدمة تدلنا على أن دخول العلوم العربية إلى أوروبا لم يكن مفاجئاً، وإن الطرق التي دخلت فيها تلك العلوم هي الأندلس وصقلية وإيطاليا والحروب الصليبية. وكانت الترجمة من العربية إلى اللاتينية هي بداية الطريق لاطلاع أوروبا على إنجازات العرب المسلمين الحضارية، فمنذ سنة 1130 بدأ مكتب للتراجمة عمله في طليطلة واستمرت الترجمة مع عصر النهضة، فترجمت كتب الرازي وأبي القاسم وابن سينا وابن رشد كما ترجمت إلى اللاتينية الكتب التي ترجمها العرب عن اليونانية مثل كتب جالينوس وسقراط وأفلاطون وأرسطو وإقليدس وأرخميدس وبطليموس، فزاد عدد ما ترجم من كتب العرب إلى اللغة اللاتينية على ثلاثمائة كتاب. ويعترف الأوروبيون أنه لولا العرب لم اطلعوا على محتويات كتب اليونان التي ضاع أصلها ككتاب أبولونيوس في المخروطات وكتاب جالينوس في الأمراض السارية وكتاب أرسطو في الحجارة.

كان طلبة العلم من الأوروبيين يسافرون إلى الأندلس والمشرق العربي. ويقول الباحثون الأوروبيون أنه لم يظهر في أوروبا قبل القرن الخامس عشر الميلادي عالم لم يستنسخ ما في كتب العرب، فعلى كتب العرب وحدها اعتمد روجر بيكن وليونارد البيزي وأرنود الفيلنوفي وريمون لول وسان توما وألبرت الكبير والأذفونش العاشر القشتالي. ويدين ألبرت الكبير لابن سينا، وسان توما في فلسفته لابن رشد. لقد بقيت ترجمات كتب العرب ولا سيما الكتب العلمية المصدر الوحيد تقريباً للتدريس في جامعات أوروبا خمسة أو ستة قرون، بل إن كتب ابن سينا في علم الطب كانت تدرس في أوروبا حتى أواخر القرن الثامن عشر. وكانت فلسفة ابن رشد الحجة البالغة للفلسفة في الجامعات الأوروبية منذ أوائل القرن الثالث عشر:

وعند دراسة عصر النهضة في أوروبا ترد أسماء كثيرة لعلماء أوروبيين على أنهم أول من اخترع أو اكتشف أمورا وعلماء لم تكن معروفة من قبل في العالم. لكننا عند دراستنا لتاريخ تلك العلوم من خلال الشواهد التي جاء بها الباحثين الأوروبيين والعرب نجد أن أسس النهضة الأوروبية من علوم وآداب هي من منجزات الحضارة العربية الإسلامية وأنها انتقلت إلى الغرب بالاتصال والترجمة من العربية. وعلى سبيل المثال لا الحصر فإن صناعة الورق عماد النهضة الأدبية الأوروبية قد عرفها العرب منذ القرن الثامن الميلادي في العراق ومصر. أما البارود الذي كان من العوامل الرئيسية في انتصار الملوك على الإقطاعيين وإنهاء سلطتهم فقد عرف العرب نظرية تركيبه وخصوصا (البارود المندفع) منذ القرن الثاني عشر واستعملوه في النصف الثاني من القرن الثالث عشر. وقد وصلت معلومات البارود إلى أوروبا عن طريق الترجمة، وأول من استعمله في أوروبا هم عرب الأندلس في النصف الأول من القرن الرابع عشر في معارك بازا واليكانت والجزيرة. واستعمله العرب المسلمون ضد الحملة الصليبية السابعة، وتقول المصادر إن العرب قد استعملوا البارود القاذف كمادة دافعة للصواريخ في النصف الثاني من القرن الثالث عشر. ففي كتاب الحرب لمؤلفه حسن الرماح وفي كتب أخرى عالجت شؤون الحرب نجد أن الحديث يدور فقط حول المواد المتفجرة والأسلحة النارية وحول «بيض متحرك حارق» كان ينطلق كقذائف نارية قاصفة كالرعد. وفي مجال الاستكشافات الجغرافية التي تمثل أحد مظاهر العصور الحديثة - كما سنتناولها فيما بعد. فإن البوصلة والأسطرلاب اللذان استعان بهما العرب وبغيرهما للإبحار والاستكشاف هي من صنع العرب. ولا صحة لما يقوله البعض من أن فلافيو المولود في إيطاليا هو مخترع البوصلة. في حين أنه لم يكن الشخص الأول في أوروبا الذي عرفها، ففي سنة 1269 نقل البطرس فون ماريكور عن العرب المسلمين مباشرة معلوماته عن المغناطيس وكيفية استعمال البوصلة وبعد ذلك بخمسين سنة زعم أمالفي أنه اكتشف البوصلة.

وفي مجال علم الطبيعة الحديث والفيزياء والبصريات فإن العالم العربي الحسن بن الهيثم البصري المولود في العراق (965-1039) له فضل كبير على أوروبا بنهضتها في هذه العلوم. فقد سيطرت نظرياته على العلوم الأوروبية حتى يومنا.

الهيثم خطأ ذلك لأن الأشكال المرئية هي التي تعكس الأشعة فتبصرها العين. كما قال ابن الهيثم إن كل الأجسام السماوية بما فيها النجوم الثابتة تشع ضوء عدا القمر الذي يأخذ نوره من الشمس.

وفي علم الفلك كان العرب المسلمون هم السباقين في خوض غماره لينتقل بعد ذلك إلى أوروبا. فقد بنى الخليفة المأمون (مرصده) الشهير في بغداد وآخر في دمشق. وكذلك فعل الفاطميون في القاهرة إضافة إلى مرصد عضد الدولة في حديقة قصره ببغداد. وقد بلغ تقدم علم الفلك كثيرا بحيث أن الفلكي عبد الرحمن الصوفي (903 - 986) أصدر فهرس النجوم ببغداد صحح فيه أخطاء اليوناني بطليموس وأبرخس.

أما في مجال الطب فإن ما أنجزه ابن سينا والرازي قد عاش مع الأوروبيين حتى القرن السابع عشر وأصبح لقب (روح ابن سينا) يفخر به كل طبيب في أوروبا. أما أبو بكر محمد بن زكريا الرازي فقد كان كتابه الوحيد في كلية الطب بباريس الذي يضم كل المعارف. وظل المرجع الأساس في أوروبا مدة 400 سنة دون أن يزاحمه أحد. واعترف الباريسيون بقيمة وفضل الرازي الذي أطلقوا عليه اسم (رازاس) فأقاموا له نصبا في باحة القاعة الكبرى في مدرسة الطب وعلقوا صورته في قاعة أخرى بشارع سان جرمان.

ويدين الطب في أوروبا لعلم الكيمياء العربي بسلسلة من أشكال العقاقير وأشهر من اعتمد الأوروبيون عليه في هذا المجال هو العالم النباتي ابن البيطار. والحقيقة أن العرب المسلمين هم المؤسسون الحقيقيون لمهنة الصيدلة. وكان الخليفة المنصور أول من افتتح الصيدليات العامة سنة 880 ميلادية وتوسعت أيام المأمون فأصبحت تحت إشراف الدولة وأصبح لمهنة الصيدلة إجازة تمنح من متخصصين.